

البيان في أحاديث كتاب التبيان

د. حسين أحمد كتانة **

د. عمر راشد حسن *

تاريخ قبول البحث: ٢٠١١/٢/١٦ م

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٠/٧/٧ م

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة نماذج من الحديث النبوي قراءة بيانية تكشف جماليات النص الشريف، وتبرز تميز البلاغة النبوية في بناء الجمل وصياغة الأفكار.

وقد بنت الدراسة مادتها على مختارات من الأحاديث التي أوردها الإمام النووي في كتابه "التبيان في آداب حملة القرآن" لما يتمتع به النووي من ذائقة عالية في الاختيار، ودقة في الضبط والنقل، إضافة إلى موضوع الكتاب ذي الصلة بالقرآن العظيم وأهله، ومواصلة لما هدف إليه المؤلف من نشر حديث الرسول ﷺ وتيسير فهمه وحفظه.

Abstract

This study aims at exploratory reading of a representative sample of the prophet's Hadiths to highlight the aesthetics of the holy text. Besides, it will attempt to show the prophet's eloquence in sentence building and ideas construction.

The study based its material upon some selections from prophet's hadiths mentioned by Imam Al-Nawawy in his book: "Al-tibyan fi adaab hamalt al-Qur'an" for Imam Al-Nawawy was known for his good choice accuracy of transfer.

To add will be the, subject of the book that relates the holyhe Qur'an and author's intention of spreading out the prophet's Hadith and facilitating and memorizing it.

تمهيد:

عن شرح كلامه وتفسير قوله^(١).

وكذلك وصف الجاحظ لبيانية الخطاب النبوي إذ يقول: "ثم لم يسمع الناس كلاماً قط أعم نفعاً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ"^(٢).

ولا يخلو كتاب تناول الحديث الشريف دراسة وعرضاً من وصف مطول لفصاحته ﷺ ورصد مكانته السنيّة في براعة القول ونصاعة البيان؛ إذ يتصدر الرسول العظيم أعلى السلم البشري في فصاحة المنطق وحسن البلاغة^(٣).

من هنا اتجه الكثير من دراسي البلاغة العربية إلى الحديث الشريف يستشهدون بأقوال النبي ﷺ على مباحث البلاغة وفروعها، وأينما تلتفت في كتب البلاغة قديمها وحديثها وجدت درر البيان المحمدي تتلألأ وسط كلماتها وتزهو بين سطورها.

وجاءت هذه الدراسة محاول الوقوف على جماليات

ظل الحديث النبوي الشريف على مدى العصور المثال الأعلى والنموذج الأسمى للبلاغة العربية؛ إذ يأتي بالمرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، ولا غرو في ذلك فالرسول محمد ﷺ لا ينطق عن الهوى، وهو ابن العربية وفارس كلماتها، ولعل في وصف القاضي عياض ما يعني عن كثير قول في هذه المسألة، إذ يقول: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فكان رسول الله ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدايع الحكم، وعلم السنة العرب؛ فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن

* أستاذ مساعد، الجامعة الهاشمية.

** أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت.

درسه ومدارسته، كما أنه يحشد العديد من أحاديث الرسول ﷺ وهي على درجة جيدة من الصحة والضبط، واستمراراً لهدف الإمام النووي في أن يكون الكتاب باختصاره وسيلة للاهتمام بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبالتالي تكون القراءة البيانية أداة تزيد من وضوح الأحاديث وبيان مراميها.

وتتحو هذه الدراسة بقلمها باتجاه تناول الأدبي لتحليل صور البيان في هذه الأحاديث، مستندة إلى جماليات الصور ودلالاتها البيانية، ودور ذلك كله في حمل الفكرة وبيان المعنى، ضاربة سهمها في اتجاه تلمس البراعة والإتقان في فنون الكلام عند رسول الله ﷺ.

جماليات الصورة في أحاديث التبيان:

أشبع الباحثون الصورة الفنية مدارساً وتحليلاً^(١). يغنيها عن الخوض في غمار تعريفها وبسط جزورها، ويكفيها القول إنها التشكيل الفني الذي ترسم فيه الأفكار وتتجسد لتغدو عوالم متحركة وليست قوالب جامدة.

وقد حلت الصور الفنية في الأدب النبوي المرتبة الأسمى والمقام الأسنى في مجال البيان العربي لا يدانيها مقال ولا يتجاوزها بيان؛ فقد جاءت سهلة المنال بديعة التشكيل، دانية القطاف رائعة التأثير، تأخذ بالألباب وتستقر في العقول.

ولعلنا في قادم السطور نعيش مع روائع من التمثيل النبوي لأحاديث وردت في كتاب "التبيان في آداب حملة القرآن" للإمام النووي، فنلتمس بديعه ونستجلي براعته.

** طعم طيب وطعم مر:

يورد الإمام النووي في سياق حديثه عن فضيلة تلاوة القرآن وحملته قول الرسول العظيم ﷺ: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب.

ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب.

ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب

النص النبوي المستشهد به في كتاب "التبيان في آداب حملة القرآن" للإمام النووي العَلَم الذي ما يزال أثره واضحاً فيما تركه من إرث في ميدان الحديث الشريف؛ فالإمام النووي: هو أبو زكريا يحيى ابن الشيخ الزاهد أبي يحيى شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام الحزامي النووي الشافعي، ولد في أرض حوران بسوريا بنوَى سنة ٦٣١هـ، نشأ وترعرع مكباً على العلم حتى صار من أشهر علماء عصره في الحديث والفقه، وكان شديد الزهد والورع، ولي مشيخة دار الحديث، وكان حافظاً للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعلمه، وله عشرات المؤلفات، من أبرز مؤلفاته: شرح مسلم، وروضة الطالبين، ومنهاج الطالبين، ورياض الصالحين، والأذكار، وغيرها من الكتب القيمة.

توفي رحمه الله في الثلث الأخير من من ليلة الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٧٦هـ في بلدة "نوى" ودفن بها^(٤).

أما كتابه قيد الدرس "التبيان في آداب حملة القرآن" فقد ألفه النووي من أجل خدمة حفظة كتاب الله كما يقول: "ورأيت أهل بلدتنا أكثرين من الاعتناء بتلاوة القرآن الكريم تعليماً وتعليماً، ... فدعاني ذلك إلى جمع مختصر في آداب حملته، وأوصاف حفاظه وطلبته، ...، وأوثر فيه الاختصار، وأحاذر التطويل والإكثار، وأقتصر في كل باب على طرف من أطرافه، وأرمر من كل ضرب من آدابه إلى بعض أصنافه، فلذلك أكثر ما أذكره بحذف أسانيده. وإن كانت أسانيده بحمد الله عندي من الحاضرة العتيقة، ...، والسبب في إيثار اختصاره، إيثاري حفظه وكثرة الانتفاع به وانتشاره"^(٥).

وبهذه السطور اختصر النووي موضوع كتابه ومنهجه في التأليف المعتمد على الإيجاز والتيسير على المتلقين، ولعل أبرز سبب جعل الباحثين يختارون هذا الكتاب محوراً للدراسة هو موضوعه المتصل بآداب التعامل مع القرآن الكريم وبيان منزلة من يقوم على

فكما تعطر النباتات الزكية جوها المحيط تعطر قراءة القرآن

الكريم الروح الإنسانية وتذكي جمالها.

فالرسول العظيم ﷺ جسد لنا الجوهر والأثر،

جوهر الوجود الذي يكمل بالإسلام ويكتسب قيمته

بالإيمان لذا شبهه الرسول ﷺ بالنبته ذات الطعم الطيب،

فالمؤمن أياً كانت حالته لا يفقد قيمته المؤثرة فيمن

حوله، ولا يكون إلا عنصراً مفيداً يقتات به مجتمعه لينمو به

ويزهو بمعايشته.

وتزداد هذه القيمة روعة إذا تزينت برائحة عطر

إيمانية، مصدرها قراءة القرآن الكريم التي تزيد المؤمن

جمالاً إلى جمال وطيباً إلى روعة حضور.

وتقابل هذه الصورة صورة المنافق الذي يحافظ

على صفة (الطعم المر) بمعنى انعدام القيمة في الحياة،

بل هو حضور مؤذٍ ووجود تغص به المجتمعات وتزداد

به اسوداداً ومرارة.

ولا ينفى هذه المرارة ريح طيبة يتعطر بها المنافق في

حال قراءة القرآن الكريم فإن هذه الرائحة الزكية لا تغير

في جوهر وجوده شيئاً ولا تزيد حضوره فائدة.

ويمكن تصور التقابل الذي انبنت عليه الصورة في هذا

الحديث النبوي الشريف على النحو الآتي:

وطعمها مر.

ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ليس لها

ريح وطعمها مر^(٧).

يضرب لنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث مثلاً

رائعاً لفئتين من الناس: (المؤمن والمنافق) في تعاملهما

مع القرآن الكريم مستعيناً برسم الصورة بمشهد حياتي

يلحظه كل عاقل ويتعامل معه كل إنسان ألا وهو

النبات، فعناصر الصورة في هذا الحديث قائمة على

متقابلين.

إنسان ↔ نبات

وليس مستغرباً أن تتكئ الصورة على العنصر

النباتي الطبيعي في إظهار المعنى وتجليته الفكرية، ذلك

أن هذا العنصر يضمن الديمومة للمثل ويجعل الصورة

حية ما دام في الأرض إنسان ونبات، وهي تدلل على

معرفة بأنواع النباتات والثمار الموجودة في البيئة

العربية، وهي تساعد على مزيد التذوق والفهم لحالة كل

من المؤمن والمنافق^(٨).

إن روعة التشبيه في هذا الحديث النبوي الشريف

تتمثل بتجسيده لنوازع النفس التي هي محل تأثير القرآن،

١ تقابل



٢ تقابل



كما يكشف هذا التقابل عن ثابتين ومتغير واحد:

ثابت ١ = الطعم الطيب للمؤمن في الحاليين.

ثابت ٢ = الطعم المر للمناقق في الحاليين.

متغير = الرائحة الذكية وانعدامها للمؤمن (غير القارئ

ولعل نظرة إلى هذا التقابل تكشف مدى عمق التشبيه

في تصوير طبيعة النفس والخوض في مكوناتها، فالمؤمن

يظل مؤمناً فيه حلاوة الإيمان ويبقى المنافق منافقاً فيه

مرارة النفاق.

للقرآن) والمنافق.

فالثابت المبني على الاعتقاد لا يتغير بممارسة سلوك حسن ولا بعمل معروف، إذ إنَّ القيمة الحقيقية للإنسان مرتبطة باعتقاده لا غير مهما فعل من خير. كما أن هذا الفعل الحسن (وهو هنا قراءة القرآن) يحمل قيمة معنوية ترجع إلى عظم هذا الفعل بغض النظر عن فاعله، فالقيمة والتأثير للفعل لا للفاعل، لذلك كان تأثيره معنى لا جوهرًا؛ فأنت لا تتجذب لشخص المنافق الذي يقرأ القرآن الكريم، بل لما يقرؤه مثل الريحانة لا يجذبك إلا رائحتها لا طعمها، كما أنك لا تنفر من مؤمن لا يقرأ القرآن الكريم لأن عقيدته رفعت قيمته، كما التمرة فلا يمنعك عدم وجود رائحة لها من أكلها والاستمتاع بها.

وهكذا فإن الرسول العظيم بهذه الصور البيانية الرائعة أعطى كل شيء حقه، وجسد بالصورة الفكرة في قلوبنا وعقولنا لنظلم هذه المعاني حية فينا، أكلنا ثمرة أو شمنا ريحانة.

وقد أشار ابن الأثير في "المثل السائر" إلى جمالية التشبيه في هذا الحديث وعده من باب تشبيه المركب بالمركب "ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأتربة، وهي ذات وصفين هما الطعم والريح، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ، وفي المنافق القارئ، والمنافق غير القارئ"^(٩).

** بيت خرب:

وفي سياق آخر يورد الإمام النووي في الباب نفسه (فضيلة تلاوة القرآن ...) قول الرسول الكريم ﷺ: "إنَّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب"^(١٠).

خرب لجوف خالٍ من القرآن الكريم ← عامر لجوف فيه شيء من القرآن الكريم

ترتسم على مقدار الحفظ.

وهكذا جاء الحديث على سوية عالية من الكمال الفني، حُمِلت فيه الأفكار على جناحي التصوير لتؤكد

والخراب واحد لكن التعمير متعدد على القدر الذي يضمه القلب من القرآن الكريم، لذلك - والله أعلم - ذكر الرسول ﷺ البيت الخرب وترك الصورة المقابلة لأنها

البلاغة النبوية ثانية علو كعبها في مجال الإبلاغية، وميادين البيان؛ إذ إنك تستطيع تلمس الأفكار مجسدة حاضرة بين يديك، ليس فيها غموض منفر، ولا انكشاف مسف، بل جمال مبهر ووصول مؤثر.

** تزلت الإبل:

أما في فصل (في الأمر بتعهد القرآن...)، فيورد الإمام النووي قوله ﷺ: "تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها"^(١١).

يقسم محمد ﷺ الأمر هيناً إنن، إذ إن القسم بصيغته "والذي نفس محمد بيده"، يستخدمه الرسول ﷺ في القضايا الخطيرة والأمور الحساسة، وهل أخطر من أن يُضيع القرآن؟ أو أن يتلاشى من الصدور؟

حتماً لا يوجد أخطر من ذلك؛ فمصير الأمة ملق بارتباطها بالقرآن وتشريعاته لذلك جاء الحديث مبتدئاً بالأمر: "تعاهدوا" ومثبياً بالقسم وخاتماً بصورة فنية رائعة تمنح الحياة للمعنى فيغدو شخصاً يترك أثره في ثنايا الروح ويخلد فكرته على جدران العقل.

إن انكاء الحديث على البيئة العربية التي تعرف الإبل جيداً وتعيش شرودها مراراً يزيد المعنى رسوخاً وثباتاً، فالرسول العظيم محمد ﷺ يرسم صورة ضمور الوجود القرآني داخل القلب الهاجر للقرآن الكريم، وكأنها إبل هائمة تحاول الهرب من أزمتها؛ إذ لا تلقى من يتعهدا بالرعاية والاهتمام، وهكذا القرآن العظيم، إن لم يلق عناية من القارئ المؤمن، وإن لم يحظ بالرعاية في قلب يعرف قدره، ويعظم شأنه فلن يظل له أثر في هذا القلب وسيمضي بعيداً عن درب هذا الإنسان، وبإلها من خيبة! وما أعظمه من خسران! أن يفقد المؤمن الدليل، ويضيع من بين يديه المرشد والهادي.

ولعل مطالعة للتشكيل اللغوي الذي ارتسمت بملامحه خيوط الحديث الشريف لتكشف عن مستويات خطابية ثلاثة: إنشاء طلبي، فإنشاء غير طلبي، فجملة خبر إنكاري، ويعزز الرسول الأعظم صورة من يتعاهد القرآن بحديث آخر: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن

عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت"^(١٢).

فمن يحرص على إبله ويرغب أن تظل بحوزته ينتفع بها عليه أن يتعهدا بالرعاية ويديم صونها بحسن العناية فإن أهملها خسرهما وقد نفعها.

وهكذا صاحب القرآن الكريم إن أراد أن يظل للقرآن حضور في روحه، ونوره في قلبه عليه أن يرعاه بالذاكرة ودوام القراءة، ويتعهدا بالفهم والتطبيق، ويبدل جزءاً عظيماً من وقته خدمة له، فإن فعل وجد حلوة القرآن في روحه وعاش الاستمتاع القرآني بكل معانيه.

إن خدمة القرآن ورعايته بالفهم والمدارسة هي السبيل الوحيد لإدامة أثره في النفوس البشرية، وإن فقد هذه الخدمة زال أثره وانمحي وجوده فيضل البشر سبيلهم، ولعل في إلحاح الأحاديث الشريفة على صورة تعهد الإبل إشارة دالة إلى أن القرآن الكريم لا يحفظ بمجرد التلاوة فقط بل تجب الاستماتة في خدمته للأجر والثواب.

ويرد الناصح الحلبي توسل الأحاديث بالإبل دون غيرها من الحيوانات مثلاً للفتل إلى المناسبة بين القرآن الكريم والإبل "ومن ذلك أن الإبل تنقاد مع الضعيف والقوي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، مع شدة قوتها وعظم خلقها، والقرآن مع علو قدره، وجلالة أمره وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسر منقاد للضعيف والقوي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى.

ومن ذلك أن الإبل تحمل الثقل، والقرآن الكريم يحمل أقال المذنبين، فيكل حرف منه عشر حسنات، كل حسنة تكفر سيئة، ومن ذلك أن الإبل أعون شيء إلى إيصال العبد إلى بيت الله تعالى، والقرآن بتلاوته يحصل للعبد القرب والمناجاة للرب جل وعلا. والله عز و جل ضرب المثل بالإبل، فاقتدى الرسول بذلك..."^(١٣).

في حين يرى الحافظ العسقلاني أن حص الإبل بالذكر في هذه الأحاديث مردّه إلى أن الإبل أشد الحيوانات الإنسانية نفوراً، وفي تحصيلها بعد استماتة نفورها صعوبة^(١٤).

بأمره ويستظلون بظله، فتسمو أرواحهم في عياء المجد الرباني الذي لا يسامقه عياء ولا يدانيه مجد.

وينفتح النص أمام التأويل بتفسير مغزى الكناية وتوجيه بوصلتها فهل هي رفعة مادية؟ أم أنها معنوية؟ وهل هي دنيوية أم أخروية؟ ومطلق الظن أن انفتاحها انفتاح شمول وعموم، يربأ بالمكافأة الربانية في حق الذي يعطي قدر القرآن في نفسه وروحه أن تكون حبيسة وعد مؤطر، أو رهينة كم محدد؛ فعظمة القرآن الكريم لا بد ان تستجلب عظمة لمن يقصر جسده وروحه خدمة له.

** أعذب من قينة:

ويتواصل البناء الفني المؤطر للبنية اللغوية في النص النبوي الشريف فتتألق الجملة، وتزدان الفكرة ويتجسد المعنى في سياقات لغوية بعيدة عن التقرير لتضمن الوقع الأجل في النفوس والأثر الأسنى في الأرواح.

فها هو ﷺ يتحدث عن قارئ القرآن الكريم حسن الصوت عذب الإيقاع وكيف يحظى بقرب الله منه وكأنه الوحيد على سطح الأرض، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الله أشد أدنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته" (١٧) بصوت حسن وقلب خاشع وتعلق لصيق بالقرآن يضمن المؤمن قرب الله تعالى ووصله، ويرسم الرسول الأعظم هذا القرب بتعلق صاحب الجارية ذات الصوت الرخيم في الغناء بها وبصوتها، في مشهد ترتسم في إطاره إسقاطات الحنو والتقدير والإكبار للطرف الآخر بعيدا عن ماديات التشبيه وجزئياته؛ إذ لا يتصور أن ينعدق التشبيه بين الله والقارئ من جهة والقينة وصاحبها من جهة أخرى، بل هي صورة الاعتناء والاهتمام الشديد الذي يشكل العلاقة بين أطراف التشبيه.

وباستخدام التأكيد رابطاً لنظام الجملة في حديث الرسول ﷺ إشعار بعظم القضية المحمولة على جناحيه، وإشارة إلى أن التغني بالقرآن الكريم ليس مسألة كمالية، بل هي سبب في رفع أجر القراءة وثوابها، وخطوة أقرب لتحقيق القبول لهذا العمل ونيل رضا

ولعل تغليب الحافظ العسقلاني أدق، وأكثر ملامسة لواقعية التشبيه الذي تغيا الربط بين الحرص على الاحتفاظ بالمقتنى النفيس وسهولة ضياع هذا المقتنى، وليس من مثال صادق معاش لصيق بحياة العرب غير الإبل يصلح لتجسيد هذه الأفكار، ويضمن الوصول الأمثل للمعنى، والتمثل الأكمل للمراد.

** الناسي الأجدم:

في هدي نبوي آخر، يرسم الرسول الأعظم صورة لذلك الذي نسي القرآن الكريم ولم يعبأ به إذ يقول: "من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله ﷻ يوم القيامة وهو أجدم" (١٥) ويا لها من صورة تجسد عقوبة الذي لا يشكر نعمة تعلم القرآن ولا يحافظ على هذا الكنز يعطر جوانبه ويذكي حياته.

أجل فهاجر القرآن وناسيه سيلقى الله ﷻ مشوهاً ذليلاً لأنه تخلى عن سبب عزته ومكمل جماله، وقد يكون معنى أجدم هنا أي أجدم الحجة لا يستطيع مقالا ويحار إذ فقد الهادي والدليل والنور في ظلم القيامة.

ما أبرعها من صورة! رسمت بعناية يكتمل بها مشهد التقرير في الحديث؛ فدائرة الحديث التي ابتدأت دنيوياً بتسليط الضوء على قارئ القرآن الكريم العابر غير الحريص على ديمومته في قلبه وروحه، تنتهي أخروياً بتجسيد النقص المعنوي في حق القرآن العظيم تجسيدا مادياً في شخص القارئ ليبدو ضعيف الحجة واهي البنين مشوهاً، كل ذلك في سياق زرع الرهبة من جعل القرآن الكريم شيئاً عابراً في حياة الإنسان، وفي دفع اللهم لإبراز خصوصية التعامل مع النص الحكيم.

** المقام العالي:

يأتي الحديث النبوي في هذا المقام مستخدماً الأسلوب الكنائى، وتتجسد فيه صورة الأثر القرآني على الذين يتعاملون معه، حيث يقول: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» (١٦) فرسول الله ﷺ هنا يرمي إلى أن القرآن العظيم سبب في رفعة الذين ينقادون

الله تعالى به.

وفي السياق ذاته الذي يتناول الأجر المدخور لقارئ القرآن المرتل لآياته يقول النبي - عليه الصلاة والسلام : يُقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها^(١٩) ارتقاء ما بعده ارتقاء ومنزلة لا تدانيها منزلة متصلة اتصالاً وثيقاً بالقرآن الكريم وتلاوته، ولا تخفى تلك الموازنة السجعية البديعة "قرأ وارتق" التي تعكس التجانس بين القراءة والارتقاء في عليين الجنة، ليعيش المتلقي في حالة من التخيل لتدرج الارتقاء بتدرج القراءة.

وليس خافياً أن بنائية الحديث التي تتغل المتلقي إلى عوالم الآخرة، ترفع وتيرة الدافعية تجاه قراءة القرآن وترتيله، فقلب المؤمن معلق بذلك اليوم، وبكيفية النجاة من حساب عسير، ونيل الدرجة العليا؛ ليأتي الحديث بالوسيلة المثلى للفوز والنجاة في تلك اللحظات الصعبة.

** فليبشر:

وبيان الجزاء في يوم الحساب تتبني فكرة الحديث الأخير في قراءتنا هذه حيث يروى عن نبينا محمد عليه أزكى السلام وأتم التسليم قوله: "اقرأوا القرآن فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن وإن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن ومن أحب القرآن فليبشر"^(٢٠) وفيه تتساقق بنائية الجمل خدمة لفكرة النص، إذ تتصدره جملة إنشاء طلبية تحفز النفوس والقلوب فتدعن للأمر المحمدي "اقرأوا لتسروا" بعد ذلك بجمل خبرية مؤكدة تحمل البشارة إليها بالنجاة والفوز بقرب الله، ولتخلق في آفاق الخيال والتصوير ليغدو القرآن "صنيعاً يصنعه الله للبشر لهم فيه خير ومنافع يدعوهم إليه"^(٢١).

بذا تتشكل جمل هذا الحديث مزججة بين التقرير والتصوير، تقرير يشد النفس ويحفز الوجدان، وتصوير يجنح بالعقل في أجواء التخيل فيرسم القرآن مأدبة إلهية عامرة بما يطفئ ظمأ الروح إلى الاتصال بالله ﷻ والقرب منه والعيش بكنفه، وبما يشبع نهم القلب المشتتهي لوجبات إيمانية تبقى نبضه خافقاً ودمه جارياً.

** أجر ممتد:

ولا يقتصر أجر قارئ القرآن الكريم والعامل به على القارئ وحده بل يتعداه ليصيب السبب في إيجاده، ومن أخذ بيديه ليسلك هذا الدرب ألا وهما والداه كما أنبأنا بذلك حبيبنا محمد ﷺ في قوله: "من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا فما ظنكم بالذي عمل بهذا"^(١٨) ألق وجمال وفخر تتجسد بتاج يكلل رأساً أيقن أداء مهمته؛ فتعهد ابنه بالتربية الفاضلة فكان نتاج فعله قلباً واعياً لكتاب الله عاملاً بما فيه فاستحق الجائزة.

لكنه تاج ليس ككل التيجان مشرق بنور يعلو نور الشمس، ويفضل ضوءها، كيف لا؟ وهو مكافأة تتعلق بالقرآن الكريم الذي هو مصدر النور وسبب الضياء في نفس كل مؤمن، وهو الشمس التي أنزلت لتنتير دروب العالمين، فجاءت الجائزة من جنس العمل؛ لأن من تزين بالقرآن الكريم بالدنيا لا بد أن يكون مميزاً عن أقرانه بما يشير إلى سبب التميز، ولعل في رمزية التاج المكلل إشارة ضمنية إلى قيادية هذا القرآن الكريم وما جاء فيه؛ فمن حكّمه وعمل بحكمه حقه أن يسود الناس ويتوج ملكاً بالقرآن تعلق هامته فوق كل الهامات، ويتنسم ذرى المجد فخوراً بهدي رب البرية الحاكم المطلق لهذا الكون.

ولا يقف الهدى النبوي عند حدود توصيف جزاء والدي القارئ بل يترك للعقل تصور جزاء القارئ العامل ذاته حين يضع المتلقي أمام سؤال يستفز العقل (فما ظنكم بالذي عمل بهذا) كيف يكون تاجه يا ترى؟ وما حدود ألقه؟ أسئلة تخطر في مخيلة القارئ يتوسل بها رسم التاج الذي يكلل جبين القارئ العامل، ويتفوق على تاج الوالدين، كل ذلك في سبيل أن يكون هذا العمل سلوكاً راسخاً يسعى إليه كل والد وولد.

** اقرأ وارتق:

٥٣ ٧١. الصباغ، محمد، التصوير الفني في الحديث النبوي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨، ص٦٩ ٢٥. الصباغ، محمد، الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه، ط٧، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، ص٤٧ ٥١. الرافي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص٣١٨ ٤١٥.

(٤) للاستزادة انظر ترجمته في: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٤٩٦ ١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ٢٧٨/٧. مرسي، محمد سعيد، عظماء الإسلام، دار اقرأ، ٢٠٠٢م، ص٣٥٦ ٣٥٧.

(٥) النووي، أبو زكريا يحيى (ت ٦٧٦هـ)، التبيين في آداب حملة القرآن، ت: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة. ص١٤.

(٦) من أبرز الكتب التي تحدثت عن الصورة الفنية: الداية، فايز، جماليات الأسلوب والصورة الفنية في الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م. مطلوب، احمد، في المصطلح النقدي، منشورات المجمع العلمي، بغداد، العراق، ٢٠٠٢، ص٤٠١. ٢٠٩. ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٨١. الصائغ، عبد الإله، الصورة الفنية معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ١٩٨٧. عبد التواب، صلاح الدين، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ص١٩٩٥. عصفور، جابر أحمد، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٢. س د، لويس، الصورة الشعرية، ترجمة أحمد الجنابي وآخرون، بغداد، العراق.

(٧) النووي، التبيان، ص٦٧ ١٨. والبخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ) صحيح البخاري، ت: محمود النواوي وآخرون، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ. "كتاب فضائل القرآن" باب فضل القرآن على سائر الكلام ٢٣٤/٦، وباب من راعى بقراءة القرآن،

وكما ابتدأ الحديث أمراً انتهى أمراً، ابتدأ بأمر القراءة وانتهى بأمر البشارة، وكأنها دائرة واحدة تبدؤها قارئاً وتنتهيها مبشراً، فهذا هو القرآن الكريم خير كله لا يمل دراسه ولا يخسر قارئه ومحبه.

ولعلنا على حدود هذه المختارات البديعة من روض أظهر الخلق، وأفصحهم نقف مشدودين إلى ألق يغري النفس بالاستزادة، ويمني الروح بالتمرغ في النور، ويدهش القلب بألوان البيان، لكنها قطاف المرتاض، وجنى المستمتع الحائر وسط أزهير لا ينضب عبيرها، ولا يخفت بديعها، ويظل السلوان أن في الإشارة بعض غنى عن الاستفاضة، وأن في التمثيل تسلية عن التفصيل.

الخلاصة:

شكلت الصورة الفنية متكأ خصباً استند إليه حديث رسول الله ﷺ في حمل الفكرة وتجسيد المعنى، وذلك أنها تسلك طريق القلب لتستقر في العقول، وتحقق الوجود الأمثل في النفوس.

وقد جاءت الأحاديث التي وردت في كتاب "التبيين في آداب حملة القرآن" فيما يختص ببيان فضل قراءة القرآن، وتعلم أحكامه، والتغني به، تعكس البلاغة النبوية العالية مما انبنت عليه من جزالة بناء وجمال صورة؛ إذ تميزت بالتمثيل اللافت والتصوير المدلل، فغدت قطعاً فنية غاية في الجمال والإبلاغية.

الهوامش:

- (١) اليحصبي، القاضي عياض بن موسى، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصطفى البابي الحلبي، ج١/٤٤.
- (٢) الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، لجة التأليف والترجمة، ص١٨.
- (٣) للتزيد عن فصاحة المصطفى ﷺ، انظر: الماوردي، أبو الحسن، أعلام النبوة، دار إحياء العلوم، بيروت، ص٦٣ ٢٦٨. الشكعة، مصطفى، البيان المحمدي، ط١، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٩٥، ص

- ح ١٤٧٨، وقد ورد عند ابن حجر: "من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجزم". العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٧٠٤/٨ وهو يرى في إسناده مقال. ويرى الذهبي في ميزان الاعتدال أنه منقطع: الذهبي، محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت: علي بن محمد الجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٣١٩/٣.
- (١٦) النووي، التبيان، ص ١٨. مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، ٩٨/٦. والرواية كذلك في مسلم بلفظ (يرفع بهذا الكتاب) وليس (بهذا الكلام).
- (١٧) النووي، التبيان، ص ٧٧. المنذري، زكي الدين عبدالعظيم، الترغيب والترهيب، ط ١، ت: محمد السيد، دار الفجر للتراث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ، ٣٠٩/٢، ورأى أن إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما. في حين ضعفه الألباني في: الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف ابن ماجه، ط ١، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ، ص ٢٥١.
- (١٨) النووي، التبيان، ص ٢٠. أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، أبواب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن، ٧٠/٢ حديث رقم ١٤٥٣. المنذري، الترغيب والترهيب، ٣٠١/٢، ورأى أن إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.
- (١٩) النووي، التبيان، ص ١٩. أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في الصلاة، ٧٣/٢، حديث رقم ١٤٦٤. الألباني، محمد بن ناصر الدين، صحيح ابن ماجه، ط ١، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٧ هـ، حديث رقم ٣٠٦٢.
- (٢٠) النووي، التبيان، ص ٢٠. الدارمي، الحافظ أبي محمد عبد الرحمن، ت: محمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، ٤٣٢/٢ موقوفا على أبي أمامة.
- (٢١) القرطبي، أبو عبد الله، التذكار في أفضل الأئكار، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٣٥٥ هـ، ص ٣٠.
- ٢٤٤/٦. ومسلم، مسلم بن الحجاج (ت ٢١٦هـ)، صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب فضيلة حافظ القرآن، ٨٣/٦.
- * الأترجة: بضم الهمزة وتشديد الجيم من أطايب الثمار حسن مظهر وطيب طعم والرائحة.
- (٨) الصباغ، محمد، التصوير الفني في الحديث النبوي، ص ٤٠٧.
- (٩) ابن الأثير، ضياء الدين (ت ٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، ص ٣٧-١٣٨.
- (١٠) النووي، التبيان، ص ١٩. الترمذي، الإمام الحافظ أبو عيسى، الجامع الصحيح، ت: عبد الرحمن عثمان، ط ٣، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٧٨، كتاب فضائل الأعمال، ج ٥، ص ٥٤، حديث رقم ٣٠٨٠، وقال: حديث حسن صحيح.
- (١١) النووي، التبيان، ص ٥٠. البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استنكار القرآن وتعهده، ٢٣٨/٦. مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعاهد القرآن ٧٦/٦. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، كتاب الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرآن ١٥٥/٢.
- (١٢) النووي، التبيان، ص ٥١. البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استنكار القرآن، ١٣٧/٦. ومسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضائل القرآن والأمر بتعهده، ٧٥/٦.
- * والإبل المعقلة: المشدودة بالعقال.
- (١٣) الحنبلي، الناصح، أقيسة النبي، ت: أحمد حسن جابر وعلي أحمد الخطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ١٩٧٣، ص ١٦٨.
- (١٤) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، ٧٩/٩.
- (١٥) النووي، التبيان، ص ٥١. السجستاني، الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان.